مجد العرب والاسلام

للأستاذ اسماعيل مظهر

كانت رومية قد لفظت آخر أنفاسها عندما اقتلع زعيم حربى من الهمج المتبربرة تاج الإمبراطورية الرومانية من رأس إمبراطور صبيّ أبيض الوجه ، وضّاح الجبين ، ليضعه فوق رأسه الـكث الشعر ، المليّد الفودين

أما الزمان فسنة ٤٧٦ بعد الميلاد . وأما المسرح فدرجات قصر راقنّا الرخامية

كان الانحلال قد امتد إلى عظام رومية ينخرها منذ سنين ، فأخذت همّتها تضعف وقواها تتبدد شيئاً بعد شيء . أما آخر مشهد من مشاهد هذه المأساة التى مثلتها رومية على مسرح هذه الدنيا ، فقد مرّ مرور الحلم ولم يأبه له إنسان . وهنالك انسدل الستار على تلك الدينـة القديمة وانطوت صفحتها الخالدة . أما المستقبل فكان طوع يمين تلك الشعوب الفتية القوية التى انحدرت من الشمال

خرجت تلك الشعوب من خلال المفاوز الجبلية الثلوجة ، وانحدرت من هضاب الشمال الهاوية ، وشقت طريقها إلى الجنوب حيث الأراضى الشامـة والحقول الخصبة . ولقد ركب بعضهم متن العباب على سفائن أشبه بالحيتان الضخام ، وامتطى آخرون عجلات من ذلك الصنف الذى يستخدمه البدو إذ يرعون أنعامهم . ولقد اتخذوا فى جوانب الطرق المرمرية التى أنشأها القياصرة العظام محاطّ يضربون فيها مخايمهم ، وكان البحر المتوسط مرمى أنظارهم ؛ ذلك بأن رومية لم تجمع ثروتها الضخمة إلا من شطآنه

مضوا يهيمون فى كل واد غاصبين مقاتلين ، فنشروا الرعب والفوضى فى ربوع المدائن القيصرية ؛ وكانوا فى جهالة ، فساء تصرفهم ، وفسدت أعمالهم ؛ وقد تمضى عليهم فترة يرقون فيها أشتاتاً ، ثم تنجدهم موجات جديدة من الهمج أمثالهم هابطة من الشمال أو من الشرق . ونُسِىَ القانون الرومانى فأصبح الحق للأقوى ، واحتكمت تقاليد العشيرة البدائية فى الجماهير ، تقاليد أولئك الذين نشأتهم صحراء غوبى المجدبة فى جوف الصين

وظل العالم الحاف بالبحر المتوسط خمسة قرون ميداناً لتنقل تلك القبائل الهمجية ووحداتها الحربية . على أنهم إن ظلوا أمناء لتقاليد حياتهم البدائية ، واحتفظوا بروح العشيرة ، فإنهم فى خلال تلك الخمسمائة من السنين كانوا قد تقبلوا آثارة مما خلف العالم الرومانى الإغريقى من صور الثقافة

* * *

طوى رومية ظلام القرون ؛ فلما طواها خيم على أوربا ظلام الجهل والهمجية . ذلك الجهل وتلك الهمجية كانا طابع الشمال ، فعملت رومية جاهدة فى أن تصد طغيانهما عن الجنوب قروناً عديدة ؛ فلما لفظت رومية آخر أنفاسها ، استباحت فوضى الشمال حضارة الجنوب

وكانت الغابات المرطوبة على عهدها لم تتغير ، والخرائب المقبرة الحزينة على سابق حالها مذ سكنها البوم وأخذت تسبح فى أفنيتها وتنتقل فى كرومها القديمة . ولقد ألفتها الذئاب الجارحة تعيش جماعات متعاونة على الصيد والافتراس . أما المزارع فكانت رقعاً تتخلل الأرض الحجرية ، حيث القرى بأكواخها المشيدة فى لبنات مـلاطها الطين وسقوفها من البوص والهشيم ، تقوم هنالك فى سفح قصر منيف ذى أبراج ضخام لسيد من أسياد القطائع

أما الرعاة فكانوا ينامون فى العراء ، وفى الوديان المخيفة الموحشة ؛ مايؤنسهم من شيء إلا المفترس من الحيوان والجارح من الطير . ذلك لأن مفاوز الغابات كانت مآهلهم الأمينـة ومرابيهم الأصيلة

وهنا وهنالك كنت تقع على ذلك التراب الأبيض السافى تتخلله قطع من الأحجار ، إن نمت عن شيء فمن أن التراب

والأحجار إنما هي بقايا طريق روماني براه الزمان

بين الفينة والفينة كان يمر بذلك الطريق يهودي من بني إسرائيل ومن ورائه شرذمة من الخيل ؛ أو تاجر تحيط به كتيبة من حملة الحراب ، وأقل ما يكون حدوثاً أن يثير غبار ذلك الطريق كتيبة لسيد من أسياد القطائع ، فإذا مرت اجتمع من حولها أهل الحقول ينظرون مأخوذين من رجال تلك الكتيبة الأشداء ، يؤخذون برأى الدروع السود المصفحة بالحديد ، والملافع الكبيرة التي يغشى أطرافها الفراء

قلّ من أهل الريف من رأى أكثر من ذلك ؛ اللهم إلا أن يكونوا قد رأوا علامة الصليب الكبيرة التي تشير إلى التقاء الطرق وتفرعها في نهاية الوادي . أما ما وراء التلال فكان مجهولاً بل كان عدواً مخيفاً . ولم يكن لهم اتصال بالعالم الخارجي عن عالمهم هذا ، اللهم إلا عن طريق الرهبان لا بسي المسوح ، أولئك الذين كانوا يجوبون الأنحاء حُفاة من دير إلى دير ، أو عن طريق شاعر من مؤلفي الأغنيات ، يمر مجلان إلى البهو ليتناول وجبة فاته أوانها

ذلك بأن أهل أوربا في عصور الظلام عاشوا مدفونين في وديانهم التي نشأتهم ولم يروا مما وراءها شيئاً . قال حراث من أهل ذلك العصر انحدرت إلينا كلماته : « إذا تنفس الصبح خرجت تواً أقود الثيران إلى الحقل ، ثم أضعها في المحراث ، لأن واجبي أن أحرث كل يوم حقلا ، وإلى جانبي ولد لي أبحّ صوته البرد والصياح . فاذا فرغت من عملي ذاك ملأت المذاود بالدريس وسقيت النَّعَم ثم أخرجت الرَّوْث . يا لله ! إن هذا العمل المرهق شاق ، ولكنني لست حراً »

وكثيراً ما كان القحط يحط عليهم . فأيام ممطرة حين البذار ، أو فساد في المحصول ، أو سوس ينخر القمح ، أو جفاف أو حرب ، كل سبب من أولئك كان كافياً وحده أن ينشر الجوع والبلاء

قيل : « كان الطباشير يطلب من الأرض ويمزج بالدقيق ليصنع خبزاً . لقد اصفرت وجوههم وانحطت قواهم ، حتى لقد عجزوا عن أن يجروا أنفسهم من فوق الأرض جراً . وهيئت حفر ليسحب إليها المحتفرون ويلقون في جوفها . وكانت هذه المصائب تلابسها مصائب أكبر وكوارث أعظم . فإن الذئاب وقد أنسوا على جوانب الطرق كثيراً من الجثث ، ملكتهم الشجاعة وأغواهم ضعف الناس ، فراحوا يهاجمون الأحياء . أما مواد الطعام فقد خص بها الأقوياء ليظلوا قادرين على العمل ، لعل الحقول تزرع ولا تبور »

وقيل : « رئي رجل في سوق « تونير » حاملاً لحماً مطبوخاً ليبيعه في سوق المدينة . فلما سئل فيه ادعى أنه لحم حيوان . ولكن ذلك لم ينجه فسيق إلى السؤال ، وهنالك لم ينكر جريمته فأحرق حياً . أما اللحم البشري الذي أتى به الرجل فقد دفن باسم العدل والقانون . غير أن رجلا غيره نبش ذلك اللحم وأكل منه ، فكان جزاؤه الموت إحراقاً »

وفي مثل تلك الفترات كان الطاعون من بلايا الأحياء . فانهم كانوا يزحمون الأكواخ والمساكر ، حتى أن أسراً برمتها كثيرا ما كانت تذهب فريسة ذلك المرض ، فيتركها الباقون ويهجرون المنازل والربوع فزعاً من الموت وفراراً من البلاء . وكان المرضى يحملون إلى الكنائس ابتغاء الشفاء ، فتنتشر العدوى في أولئك الذين أتوا ليؤدوا فريضة الصلاة عبادة خالصة لوجه الله

قال أردريكوس ڤيتالس أحد مؤرخي القساوسة : « عمّ بلاء المرض فمضى بأهل بيوت كثيرة ، كما أن الجوع قد أفنى المرضى ؛ فلما أن خربت الثيران الأرض ، خرج الأكثرون هائمين على وجوههم . فلما رأوا أن الأبرشيات قد طمست معالمها ودرست آثارها ، فروا من الكنائس الخاوية هرباً إلى حيث لا يعلمون »

* * *

هذه صورة مما كان في أوربا الغربية ، لما انفلق صبح الزمان عن غلام يتيم من أبناء قريش ؛ فلما شب وترعرع ، ثم تفتى[1] وكاد يكتهل نزل عليه الوحي ليبشر بدين جديد ، وليؤدي الرسالة الربانية للناس أجمعين ، وكانوا من الهمجية على مثل ما رأيت في أوربا ، يقتلون أولادهم خشية الإملاق ويئدون البنات ويعبدون أصناماً كثيرة تبول الثعالب برؤوسها ، ويدينون بقوى سحرية ، ويؤمنون بظواهر الطبيعة كآلهة . غير أنهم بالرغم من هذا صدقوا وآمنوا بما أنزل إليهم . فإن صلابة محمد في نصرة الحق شدخت يافوخ الشرك والوثنية

(١) أي صار فتى

أدى محمد رسالته على خير ما تؤدى رسائل الوحى ، فلما قبض كان نور الإسلام قد انبلج فاعتنق أكثر العرب ذلك الدين القيم وآمنوا بالقرآن وآيتهما : « أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله »

وما لم يتح لنبى قريش أن يتم فى حياته ، أتمه من بعده خلفاؤه العظام . فان رجال تلك الصحراء ، وعلى رؤوسهم خوذات الحرب ، قد امتطوا صهوات جياد نحيفة صغيرة الجسوم ، أوظهور إبل عجاف ، وخرجوا من فضائهم الأرحب ليغزوا ويمعنوا فى الغزو ، تعزيزاً للإسلام ونشراً لكلمة الله . ولقد اتقدت فى جوانحهم نار الحمية فانتشروا فى الأرض ومشوا فى مناكبها ، وتنقلوا فيها من مكان إلى مكان ، بسرعة أقلقت أهل العالم القديم

بدأت الغزوات فى حكم الخلفاء الراشدين ، أصحاب محمد المقربين منه . وفى أقل من قرن من الزمان رفعت راية الإسلام على الدنيا جميعاً من السند إلى جوف الصين ، ولمعت سيوفه فى مفاوز القوقاز وأغوارها ، وسقطت مصر فى يد العرب ، وتبعها شمال أفريقية ، ثم الأندلس

ومنذ فاتحة تلك الغزوات طغى مدها المعظم على وديان أورشليم الصخرية فاكتسحها ، وأحاط الإسلام بهيكل المسيح . أما طغيان الإسلام على أوربا جميعاً فلم يصده فى الظاهر غير عقبتين : شارل مارتل فى الغرب ، وحصون بوزنطية فى الشرق . أما السبب الحقيقى فى وقوف ذلك المد الإسلامى المعظم عند ذلك الحد ، وهبوطه بعد أنه كاد يبلغ الذروة العليا ، فيرجع إلى أن أصحاب محمد قد انقسموا أحزاباً وتفرقوا شيعاً ، واختص كل حزب منهم بجزء من الأرض المغزوة . ولو أنهم ظلوا مجمعين على كلمة الإسلام إذن لاندحر شارل مارتل ، وإذن لاندكت حصون بوزنطية ، وتحقق بذلك وعيد معاوية للامبراطور الرومانى إذ قال له فى كتاب أرسل به إليه لما علم بعزمه على غزو الشام إبان خلافه مع على بن أبى طالب : « لئن تممت على ما بلغنى لأصالحن صاحبى ، ولأكونن على رأس طلائعه إليك ، ولأجعلن القسطنطينية الحمراء حمامة سوداء ، ولأخلعنك عن عرشك خلع الإسطفلينة ، ولأرسلنك فى الجبال ترعى الإبل »

لو لم ينشق المسلمون لتحقق هذا : « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم »

ولقد كانت تلك الغزوات سبباً فى أن يقف العرب ، وهم يحملون أرق الأديان وأمجد المدنيات ، وجهاً لوجه أمام أولئك الهمج الذين ثبتوا أقدامهم فى خرائب الإمبراطورية الرومانية ، واعتنقوا دين عيسى فأصبحوا نصارى . وتجاورت قوات أوربا وقوات آسيا . فان طلائع قوى النصارى كانت تلحظ عن كثب مقدمة معاقل الاسلام

أما فى الغرب ، حيث شهدت الأندلس معارك أوربا والاسلام ، فان نصارى الفرنجة ، وقد انتهزوا فرصة اضطرام نار الخلاف الموروث بين القبائل منذ الجاهلية ، كانوا قد استردوا مفاوز « البرنيز » ، ومضوا يتقدمون بتؤدة ، مثبتين أقدامهم فى شبه الجزيرة خطوة بعد أخرى . ذلك على الضد مما كان فى الشرق . فان المسلمين كانوا قد تقدموا نحو أوربا مخترقين آسيا الصغرى

فيما بين هذين الطرفين : الأندلس غرباً ، وآسيا الصغرى شرقاً ؛ وفى وسط تلك الشقة ، كان للإسلام اليد العليا : فى الأرض كما فى البحر . ذلك بأن العرب قد ألفوا البحر بسهولة ، وشقوا عبابه مرحين . وابتنوا البوارج الفخام ، فتحولوا شيئاً بعد شىء من غزاة فاتحين بحد السيف ، إلى غزاة فاتحين بسلاح التجارة . ومن ثم ثبتوا أقدامهم فى جزر البحر المتوسط ، وبخاصة صقلية ، وركبوا متن نهر « التيبر » حتى بلغوا جدران رومية

ولم يمض غير قليل حتى أخذ العرب عن الشعوب التى غزوها مبادىء الثقافة القديمة ، واخترقت قوافلهم تلك الصحارى الشاسعات من بلاد الهند إلى أسواق حلب والاسكندرية ؛ وازدانت قرطبة والقاهرة بالقصور الشامخة ودور العلم الفخمة ، وحكم هارون الرشيد فى بغداد

وهدأت الحالة واستقرت الأمور على امتداد التخوم . ذلك بأن المسلمين كانوا أحد ذكاء وأكثر معرفة وأعرق مدنية وأعظم قوة من جيرانهم همج النصارى

حوالى ذلك الزمن بدت فى أوربا بوادر جديدة ، فان شارلمان ملك الفرنجة وحفيد شارل مارتل كان قد بدأ فى تنفيذ خطته . فان متابعة الحرب والمغازى المتتالية ، واستئثار رجل واحد بالحكم كان سبباً فى أن تتكون إمبراطورية لم يدم بقاؤها أكثر من

جيل واحد ، وفى أثناء ذلك اتجه شارلمان ونبلاء جيشه نحو الشرق ، ونصب أعينهم مدينة بوزنطية

أما الذين اتزنت عقولهم فقد اعتقدوا أن عمل شارلمان إنما هو بداءة النظام وفاتحة حكم القانون ، ذلك بأن آخر حكومة منظمة كانوا يذكرون قيامها ، إنما هى حكومة الأمبراطورية الرومانية . ولذا اعتقدوا أنه ما من حاكم يصلح للحكم إلا عاهل قيصرى ، يملك زمام الأمر ويجمعه فى يده . ولقد صحت نظرتهم فان موت شارلمان كان سبباً فى أن تتمزق تلك الأمبراطورية وتذهب بدداً

بذهاب الأمبراطورية التى شيدها شارلمان عادت لأوربا عصور الظلام . فتفرقت الأمم وتنازعت الشعوب ، من غير أن تعرف أمة أو يفقه شعب للخلاص طريقاً . لقد اقتتلوا كما اقتتل آباؤهم ، بشراهة الذئاب . وفيما هم على حالهم تلك ، ممزقة وحدتهم متفرقة كلمتهم ، هبطت عليهم من الشمال عشائر من الهمج هم الدانيون والنورمان تمتطين عباب الماء

برزوا إلى مسرح الحوادث العالمية ، وكأنهم برزوا من أغوار البحار المحللة بالظلام والضباب ، متلهفين إلى أرض مشمسة خصبة ، هى أرض الجنوب ، وكانوا غير مدجنين ، يلبسون جلود الثعالب وإهاب الحيتان ، ومن فوقها الذهب اللامع ، وفى أيديهم سيوفهم الطويلة وحرابهم المسنونة وفؤوسهم الغليظة ، فخربوا ودمروا وأحرقوا ، واستقروا فى النهاية حذاء الشواطئ

ظلام من فوقه ظلام ، من فوقه ظلام . وفى ذلك الوقت تخيل إنسان من طيبي النصارى خيالا ، واعتقد بأن نهاية العالم أي القيامة ستكون سنة ألف ، أى فى اليوم الأخير من القرن العاشر الميلادى ، وارتقب الناس ذلك اليوم ، وأمضوا الليلة الأخيرة ساهرين ، يتوقعون النفخة فى الصور ، ليهرعوا جميعاً إلى موقف الحساب ، ولكن ذكاء بزغت فى نهاية الأفق صامتة كعادتها ، منعشة كعهدها ، وظهرت الأرض لابسة حليتها المعروفة ، فلم يتغير بها من شىء

ظلام فى العقيدة وظلام فى الفكر وظلام فى الحضارة . تلك كانت حال تلك البقعة التى نعرفها باسم أوربا فى أواخر القرن الحادى عشر المسيحي . فكيف كان العرب والاسلام ؟

* * *

فى أواسط القرن التاسع الميلادى أى فى عهد الخليفة المأمون العبّاسى ، عاش محمد بن موسى الذى ألّف فى علم الجبر وعنه أخذت أوربا فى أواسط القرن الرابع عشر ، فان مقالته فى ذلك العلم قد ترجمت إلى اللاتينية واتخذت أساساً لتدريس الجبر فى عصر النهضة العلمية فى أوربا . وعقب عليه محمد بن جابر البتّانى المتوفى سنة ٩٢٩ ميلادية وهو صاحب الزيج المشهور المعروف باسم زيج الصابي ، وله عدا الزيج شروح على المجسطى وشرح مقالات بطليموس ومقالة في الفلك والجغرافية ؛ ويقول فيه المؤرخ أوليرى : « كان زيجه أضبط ما وجد من نوعه عند العرب ، وله عدة مستكشفات رياضية وفلكية ظلت العمدة فى علم الفلك عهداً طويلا فى القرون الوسطى وفى مدارس أوربا على الأخص ؛ وكان يلقب ببطليموس العرب لثبات قدمه فى علم الفلك وتضلعه فيه »

وفى حدود سنة ٨٢٨ للميلاد أمر الخليفة المأمون بقياس درجة من الهاجرة لاستقراء جرم الكرة الأرضية ، وقام بهذا العمل أربعة من علماء الهيئة مدونة أسماؤهم فى صفحات التاريخ

قال أبو الفدا :

« قام بتحقيق حصة الدرجة طائفة من القدماء لبطليموس صاحب المجسطى وغيره ، فوجدوا حصة الدرجة الواحدة من العظيمة المتوهمة على الأرض ستة وثلاثين ميلا وثلثي ميل . ثم قام بتحقيقه طائفة من الحكماء المحدثين فى عهد المأمون وحضروا بأمره فى برية سنجار وافترقوا فرقتين بعد أن أخذوا ارتفاع القطب محرراً فى المكان الذى افترقوا منه . وأخذت إحدى الفرقتين تسير نحو القطب الشمالى والأخرى نحو القطب الجنوبى ، وساروا على أشد ما أمكنهم من الاستقامة حتى ارتفع القطب للسائرين فى الشمال وانحط للسائرين فى الجنوب درجة واحدة . ثم اجتمعوا عند المفترق وقابلوا على ماوجدوه فكان مع إحداهما ستة وخمسون ميلا وثلث ميل ، ومع الأخرى ستة وخمسون ميلا بلا كسر ، فأخذ بالأقل »

قيل : « واشتغل الرازى بالكيمياء واستكشف ما سماه «زيت الزاج» وهو الحامض الكبريتيك والكحول . استحضر الأول باستقطار كبريتات الحديد واسمه فى العربية الزاج الأخضر

فلما استقطره خرج منه سائل سماه زيت الزاج . ولا تزال الطريقة التي اتبعها الرازي في استخراج ذلك الحامض متبعة في استخراجه إلى اليوم . أما الكحول فقد استحضره باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة

وقيل : « أسس المأمون الخليفة العباسي مدرسة بغداد سنة ٢١٧هـ (٨٣٢م) وسماها بيت الحكمة وعهد بها إلى عناية يحيى بن ماسويه الذي توفي سنة ٨٥٧م . وكان من المؤلفين في السريانية والعربية . أما مقالته في الحيات فقد كانت العمدة في دراسة تلك الأمراض زمناً طويلاً . وقد نقلت من بعد إلى اللاتينية والعبرية

ويعتقد المؤرخون أن أكبر الأعمال التي قام بها بيت الحكمة شأناً ترجع إلى الجهود التي بذلها تلاميذ يحيى بن ماسويه ومنهم الرجل الفذ أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي المتوفى سنة ٨٧٦م فقد نقل فضلاً عما نقل من المؤلفات الطبية ، جزءاً من منطق أرسطو (الأورغانون) وبعد أن درس أبو زيد في بغداد رحل إلى الاسكندرية ، وعاد منها مزوّداً بكل ثمار الدرس التي كانت شائعة في عهده متقناً للغة اليونانية التي استخدمها في النقل إلى السريانية والعربية

ثم قيل : واجتمع معه في بيت الحكمة ابنه إسحاق وابن أخته حبيش الأعسم الدمشقي . وترجم حنين إلى العربية مقالات إقليدس وبضعة مؤلفات عن جالينوس وأبقراط وأرخميدس وابولونيوس الفرغاوي ، وهو أكبر من اشتغل بالهندسة في العالم اليوناني بعد إقليدس . ولقد ترجم أبو زيد عن غير هؤلاء كما ترجم الجمهورية ، وكتاب طيماوس لأفلاطون وقاطيغورياس والموسيقا والماغنا موراليا أي الأخلاق الكبير عن أرسطوطاليس وتعليقات طيموستيوس على المقالة الثلاثين من الفيزيقا . كذلك ترجم كتاب أرسطوطاليس في المعادن ، وهو كتاب ظلّ زماناً طويلاً مرجعاً من أهم المراجع في درس الكيمياء ، وعن أصله اليوناني أخذ بولس الأجانيطي

ومما انحدر إلينا من أنبائهم أن إسحاق بن حنين قد ترجم إلى العربية — فضلاً عن الطب — كتباً من أشهر ما حوت حكمة الأقدمين ؛ منها السوفسطائي لأفلاطون ، والميتافيزيقا والروح (ده أنيما) والكون والفساد ، وإرمانوطيقا ، أو باري أرمنياس أي العبارة لأرسطوطاليس ؛ كما نقل تعليقات عن فرفوريوس الصوري والاسكندر الأفروديسي وأمونيوس

وقيل : كان من عظماء المشارقة في عهدهم قسطا بن لوقا وأبو بشر متى بن يونس ويحيى ابن عدي وابن ناعمة وثابت بن قرة وجابر بن حيان والفارابي وابن سينا والغزالي وغيرهم

هذه أثارة مما كان في الشرق ، بل إشارة إلى بعض ما وصل إلينا من أخبارهم وما انحدر إلينا من أحوالهم بعد أن اتخذ هولاكو من كتبهم قنطرة عبر عليها أحد الرافدين . ولك أن تقيس ما انبعث على يد العرب والإسلام من أنوار العلم والمدنية ، على ما بعث أهل أوربا في ذلك العهد من ظلام على أهل الشمال

* * *

أما في الغرب — أي في بلاد الأندلس — فقد أرسل العرب على ذلك العالم الميت المظلم الذي نعرفه الآن باسم أوربا أول شعاع من أشعة النور . وليس لنا أن نأتي من عندنا بكلام نبين به عن أثرهم في تحضير العالم الحديث بل نترك الكلام للأستاذ «درابر» في كتابه « نماء أوربا العقلي ص٣٠٠ ج٢ » قال :

« لما ثبت قدم العرب في بلاد الأندلس ، بادروا إلى العمل على نشر العلم والحضارة ، وقد نقلوا معهم إلى الغرب جميع المبادئ التي قامت عليها حضارتهم في أسيا . وكان أول ما التفتوا إليه نشر المعرفة وتظليلها بحمايتهم . وقد ازدهرت في عهدهم المدن وأقرب مثال لها قرطبة ، فقد كانت تتألف من مائتي ألف بيت ويسكنها مليون من النسمات ، ويكفي أن تعرف أن شارعها الأكبر كان يطول عشرة أميال ويضاء ليلاً للمارة بمصابيح كبيرة ، وذلك مشهد من مشاهد الحضارة لم تعرفه مدينة لندن إلا بعد ذلك العهد بسبعمائة عام . وكانت طرقاتها مرصوفة بالأحجار في حين أن باريس ظلت قروناً بعد حضارة العرب في الأندلس مبركاً للمياه والأوحال التي تغوص فيها الأرجل إلى الركب في فصل الشتاء . ولم يقتصر الأمر على قرطبة ، بل إن غرناطة وأشبيلية وطليطلة كانت مدناً تعد أشباهاً لقرطبة ونظائر . وكانت قصور الأمراء مثلاً من الفخامة الشرقية ، بل كانت متاحف للفنون الرفيعة وعنواناً على حضارة عريقة ، في حين أن المنازل التي سكنها أمراء ألمانيا وفرنسا وانجلترا لم تكن تفضل حظائر الماشية في شيء ، فهي بلامداخن أو نوافذ ، وكان المخرج الوحيد

الذى يتسلم إلى فضاء الجو كوة فى أعلى السقف يتصرف منها الدخان »

ولقد وصف المؤرخون قصور أمراء الأندلس وصفاً يقصر عن إدراك حقيقته الخيال ؛ فهل علمت أن قصورهم كانت مجهزة بأنابيب معدنية لتوزيع الماء على الأجنحة المختلفة ، وأن الماء كان يجرى دافئاً فى أثناء الشتاء وبارداً مثلوجاً فى أثناء الصيف ، وأن جهازات التهوية الصناعية كانت فى الأشياء التى اخترعها العرب فى فن البناء واستخدمت لأول مرة فى قصور الأندلس ؟ قيل إن من المفاخر التى كان يزهى بها أصحاب القصور ما تحوى من المكتبات النادرة . ويكفى أن نعرف أن مكتبة الخليفة الحاكم رصدت كتبها فى فهرس بلغت مجلداته أربعين مجلداً

كان قصر الحمراء مقر عبد الرحمن الثالث وما تزال آثاره حتى اليوم تحفة نادرة من تحف الفن العالى . كانت واجهته مقامة على ١٢٠٠ عمود من الرخام جلبت من مختلف بقاع العالم المتمدين : من اليونان وإيطاليا وأفريقية ؛ وكان البهو الأكبر مغشى بالذهب الخالص ؛ وكان بالقصر ٦٣٠٠ من الحاشية والخدم ، ومن حوله ثكنات بها ١٢٫٠٠٠ من الحرّاس لباسهم من الحرير ومعاطفهم مطرزة بالذهب

كل هذا المجد يصغر ويتضاءل إلى جانب ما خلف ابن باجة ، وابن الطفيل ، وابن رشد وغيرهم من صور الفكر التى أصبحت بعد زمان النور الذى استهدى به العقل الأوربى وعنه أخذ ليؤسس نهضة أوربا الحديثة .

ثم نمنا واستيقظ الزمان ، ورحنا فى سبات وعجلة الدهر من حولنا تدور ، حتى أصبحنا ولسان حالنا يقول مع شاعرنا حافظ :

لم يبق شىء من الدنيا بأيدينا ... إلاّ بقيـة دمع فى مآقينا
كنا قلادة هذا الدهر فانفرطت ... وفى يمين العلا كنّا رياحينا
كانت منازلنا بالعز شامخـة ... لا تطلع الشمس إلا فى مغانينا
والشهب لو أنها كانت مسخرة ... لرجم من كان يبدو من أعادينا
فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا ... شزراً وتخدعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا مال ولا نشب ... ولا صديق ولا خل يواسينا

هذا طرف من مجد العرب والاسلام وصورة تذكرنا أننا كنا منائر الأرض وحماة الحضارة والعلم والثقافة والمعرفة . فلنذكر هذا ولنذكره دائماً عسى أن تنفعنا الذكريات

إسماعيل مظهر

من برجنا العاجي

تمر بى فى الحياة لحظات أود فيها لو أسأل الله أن يفك أجزائى ويعيد بنائى ، « طبقاً لشروط أخرى ومواصفات جديدة » كما يقال فى لغة أهل العمارة والهندسة ؛ ولكن ... سرعان ما أذكر كلمة « باسكال » : « لو أن أنف كليوباترا كان أكبر قليلاً مما كان لتغير وجه التاريخ » . هذا صحيح . ومن يدرينى . لعل قائلاً يقول فى أمرى غداً : « لو أن أنفه كان أصغر قليلاً مما كان لتغير وجه الأدب العربى الحديث » . ولكن الواقع الذى أوقن به أن تركيب الإنسان كتركيب العقاقير . فقليل من « السلامكى » على قليل من الشمر والينسون ينتج « مليناً » للأمعاء . كذلك حياة كحياتى مع قليل من ميولى وقليل من مطالعاتى ... ينتج أدباً كأدبى ... فكيف إذن يغير الله بعض عناصر تركيبى دون أن تتغير النتيجة كل التغيير . وما الذى يحمله على ذلك ، إلا رغبتى ؟ ومتى كنا نخلق طبقاً لرغباتنا ؟ لقد قرأت يوماً كلمة عنى فى إحدى الصحف قيل فيها : « إنى أريد أن أعيش لفنى ، ولفنى فقط » . فابتسمت وقلت : « أنا أريد ؟ » كلمة أريد « تبدو ساذجة مضحكة من أفواه البشر وهم فى حضرة « القدر » ! ما أنا إلا تركيب كيميائى مثل ذلك الملين ، « لا بد له » بهذه العناصر مجتمعة « أن ينتج هذا « المفعول » الذى يسمونه « الفن » أو « الأدب »

لافرق فى نظر « الطبيعة » بين « النحلة » و « الأديب » . كلاهما مخلوق يتنقل بين أزهار ، لينتج عسلاً آخر النهار . ومن هذه « المادة » الحلوة يصنع أحدهما بناء فصيلته ، ويقيم الآخر بناء أمته . ولو سئلت « نحلة » عن رأيها فيما تفعل لما وجدنا عندها رأياً ولا إرادة . إنما هى تفعل ما تفعل بدافع من تركيبها « البيولوجى » . كذلك « الأديب » مدفوع إلى التفكير والانتاج بحكم هذا التركيب . ولطالما تفجرت ثائراً : « لماذا ولمن أقتل نفسى بهذا العمل المضنى ؟ » . فأسمع الجواب من أعماق : « إنك لا تنتج لشىء ولا لأحد ، ولكن لأنك لا تستطيع أن تفعل غير ذلك . ما أنت إلا نحلة تفرز الأدب شاءت أو كرهت .

توفيق الحكيم